تحولات الفكر النقدي السوسيولوجي
من السوسيوأدبي إلى السوسيوبنيوي

د.سليم بركان جامعة محمد لمين دباغين- سطيف-2-الجزائر

ملخص:

تتناول هذه الدراسة الموسومة بـ:تحولات الفكر النقدي السوسيولوجي –من السوسيوأدبي إلى السوسيونقدي–أهم مسارات التحول الفكري والنقدي التي تشكل من خلالها الخطاب النقدي السوسيولوجي ،من منطلق أن النقد الأدبي يمثل نشاطا فكريا وجماليا مستمرا،وبتفاعلهما عبر مختلف المراحل النقدية التي اتسم بها النقد الأدبي، أفرز طرحا نقديا اجتماعيا،تجلت بوادره السوسيوفلسفية/السوسيونقدية من خلال القراءة الجدلية لعلاقات الأدب بالواقع ثم النقد بالمجتمع وبين هذا وذاك تجلى الطرح النقدي و المنهجي للخطاب النقدي السوسيولوجي،الذي تأكد حضوره في الساحة النقدية الأدبية، كرؤية نقدية جديدة قائمة على أصول فكرية نقدية وأخرى نقدية منهجية سوسيولوجية،أخذت على عاتقها فهم وتفسير التكوين السوسيولوجي للإبداع الفكري/الأدبي/الفني/الذي أفرزته الساحة الإبداعية ،وعليه سنتبنى منهجية نقد النقد من اجل توصيف مسارات الخطاب النقدي السوسيولوجي.

الكلمات المفاتيح:نقد.رؤية.سوسيولوجيا.جمالي.بنبوية.

The sociological critism evolution, From socio- literary to sociocritical

Abstract:

This study, titled :sociological critism evolution, from socio-literary to sociocritical, deals with the principle paths of the intellectual and critical transformation that has contributed to the creation of socio- critical discourse. This has occurred owing to the fact that the literary critic represents an ongoing intellectual and aesthetic activity, and their interaction during the different critical steps which characterize the literary critic, creates a sociocritical object which the sociophilosophical / sociocritical signs are in the dialectical reading of relations linking literary to reality, then to

المنارة للاستشارات

society. This relation contributes to the creation of the critical and methodological question of sociocritical discourse. This creation appears in the critical and literary arena as a new critical vision based on critical origins and critical, methodological and sociocritical origins carrying on shoulders the task of understanding and explaining the sociological formation of the intellectual / literary/ technical creation resulting from the creative arena.

***Key words**: critical, vision, literary, socio-critical.*

إن الحديث عن قضية تحولات مسارات الفكر النقدي السوسيولوجي ضمن حركة النقد الأدبي الحديث، يجعلنا نقر بأثره على صناعة منهجيات ونظريات نقدية أدبية سوسيولوجية، والتي يبدو أنها قامت كلها على علاقة جدلية بين الأدب والواقع من جهة والنقد والمجتمع من جهة أخرى، بل وقد يكون مجديا قبل أن نموضع إطار التحول للدراسات الفكرية والنقدية السوسيولوجية ،إن على المستوى الفلسفي النقدي أم الأدبي النقدي، أن نشير إلى أن التحول الفكري النقدي السوسيولوجي، قد بدأ خلال القرن الثامن عشر وتأكد إجرائيا سوسيولوجيا ربما في صيغته النهائية في القرن التاسع عشر، ومن ثم يكون لزاما علينا أن نؤطر إشكالية نقدية تتمثل في هل أن الأدب ظاهرة اجتماعية؟ ومن ثمةهل هو المنتج لهذه الأحداث ؟أم أن النقد الأدبي هو الذي أطر إنتاجية هذه الأحداث الإيداعية،سواء أكانت فكرية أم أدبية أم نقدية ، وبين هذه وتلك ،فإنه يمكن الإشارة إلى أن هذه العلاقات كانت ولازالت قائمة محل أخذ ورد بين المفكرينو البحاثة والنقاد، لكن المسلم به، هو أن النقد في إطاره الاجتماعي قد أكد على أن: "الآثار الأدبية التي لا تخضع لهذه الشروط لا تعتبر فنا بكل ما تحمله هذه اللفظة من معنى إبداعي وإنساني، فلا يصبح الأثر/ النقد فنا إلا إذا فهمناه فنا ونقدا مشروطا بشروط جمالية وتاريخية معينة"[1] وبناء عليه فإنه يسعى التأكيد على الطبيعة الاجتماعية لكل من الأدب والنقد، ذلك أن كل أثر أدبي ونقدي،

[1] سمير حجازي.مناهج النقد الأدبي المعاصر.بين النظرية والتطبيق.دار الآفاق العربية.القاهرة.ط1.2007.ص:139

المنارة للاستشارات

لا بد أن يكون مرتبطا بطريقة أم بأخرى بشروط اجتماعية وتاريخية وثقافية ولغوية معينة.

إن التأسيس على أن قضية تحول الفكر النقدي السوسيولوجي، لها أثر في صناعة الأحداث مثلها مثل النصوص الأدبية العظيمة، يجعلنا بداءة ننطلق من المرجعيات الفلسفية الماركسية الحديثة التي أفضت إلى تبني إطار سوسيوأدبي، قائم على علاقة البنية بالمجتمع، لذلك فإن فهم وتغير إفرازات الخطاب النقدي السوسيولوجي من جينيته النقدية الاجتماعية وصولا الى تكوينيته البنيوية السوسيولوجية، يجعلنا نحتكم إلى بعض الاعتبارات التي على أساسها قام فعل التحول الفكري النقدي السوسيولوجي ومن ثم إفرازه لمناهج ونظريات واستراتيجيات نقدية أدبية اجتماعية والتي تهدف كلها إلى فهم وتفسير لمختلف الأعمال الفكرية الأدبية.

إن الإبداع الأدبي يشكل في حقيقته بناء فكريا وآخر لغويا فنيا لذلك فإن إطار التفاعل مع مختلف الأنساق الاجتماعية قد لا تخرج عن سياق هذا الطرح الفكري النقدي السوسيولوجي، الذي بدا ضمن نشوئيته فلسفيا ثم انتهى نقديا اجتماعيا مما نتج عن ذلك إطار منهجي نقدي سوسيولوجي شكل بحق مسارا نقديا جديدا قائما على جهاز نظري وآخر إجرائي جعل الخطاب النقدي السوسيولوجي يفرض نفسه -إيديولوجيا ونقديا وأدبيا- ضمن الساحة النقدية الأدبية الحديثة.

لعل اقتفاء أثار هذا التحول الفكري النقدي السوسيولوجي تكون نفسه على أساس فلسفات اجتماعية حديثة، حاولت تأطير هذا التحول الفكري الفلسفي الاجتماعي الى نقدي اجتماعي أدبي أي من سوسيولوجيا أدبية إلى سوسيولوجيا بنيوية.

أولا:الفلسفة السوسيولوجية للأدب/ الانطولوجيا الاجتماعية للأدب

يبدو أن الإشكاليات النقدية السوسيوتاريخية أو التي تعرف في أدبيات النقاد: "النظريات النقدية السوسيوتاريخية [1]"والتي نهضت على مرجعيات الفلسفة النقدية

[1] ينظر :حميد لحميداني.النقد الروائي والإيديولوجيا.المركز الثقافي العربي.ط1.1993.ص:64

المنارة للاستشارات

الجدلية الماركسية التي تنظر من زاوية العلاقة بين الأدب والمجتمع من منظور التفسير السوسيولوجي للأدب والتي ركزت على ضرورة تمثل مقولات التفسير السوسيوتاريخي الذي ينظر إلى حقيقة تقييم الهوية المجتمعية في الأدب إلى بنيتين هما البنية الفوقية بما تحتويه من أفكار وتصورات فلسفية وإبداعات فنية وأدبية والبنية التحتية والمتمثلة في مختلف الأنساق الاقتصادية وأساليب وصيغ تنظيمها، ولذلك فإن المعادلة تنهض بفعل التأثير والتأثر بينهما، ومن ثم فإن أي تغيير في البنية التحتية قد يستتبعه تحول في البنية الفوقية، لذلك اعتبر" ماركس "أن تكوين مجموعة علاقات الإنتاج للبنية الاقتصادية للمجتمع يمثل الأساس الملموس الذي تشيد عليه بنية فوقية قانونية وسياسية أو به تنقل أشكال اجتماعية من الوعي، ذلك أن: "نمط إنتاج الحياة المادية يتحكم في مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عامة، إذ ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم بل أن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم"2[1]وعليه فإن هذا التأسيس الفلسفي الماركسي النظري أظهر وبشكل جدي فعالية العلاقات المادية الاجتماعية التي تربط الإنسان بالمجتمع من خلال التطور التاريخي وبالمقابل فقد أظهر كذلك بشكل جلي علاقة التأثير والتأثر التي تحصل بين الأدب والمجتمع من خلال السيرورة الاجتماعية ومن ثم القول بأحقية أنماط الفكر النقدي السوسيولوجي على المستوى الإطار النقدي الأدبي، ذلك أنه وفي الوقت نفسه هو محاولة لتجاوز الإطار التبسيطي لهذه العلاقة العضوية التي تربط الأدب بالمجتمع ومن ثم فإنها في جانب آخر قد أفرزت رؤية نقدية سوسيولوجية نشطت بفعل مجالها لان تأخذ اتجاهين في رحاب نظرية النقد الأدبي السوسيولوجي هما: نظرية الانعكاس والتي قامت على أسس الفلسفة النقدية الجدلية الماركسية، ونظرية السوسيونقدية والتي نهضت على أسس نقد بنيوي أجناسي ماركسي جديد أصله كل من: لوكاتش وغولدمان و من جاء بعده.

أ/ الاصول الفكرية للنقد الأدبي الاجتماعي:

[1] عمار بلحسن.الأدب والإيديولوجيا.المكتبة الشعبية.دط.دت.الجزائر.ص:40

المنارة للاستشارات

لعل المرجعيات الفكرية والعلمية اليونانية كان لها الفضل في تأطير فهم فكري ونقدي لجينية الخطاب النقدي السوسيولوجي، ذلك أن مفهومي المحاكاة/ التقليد كان لهما الأثر الكبير على مختلف البدايات النقدية الاجتماعية التي قدمها الباحثون والمنظرون والنقاد في مجال النظرية النقدية الاجتماعية، ومن هذا السياق الفكري النقدي السوسيولوجي، لابد من استحضار محاولة المفكر- فيكو- :الذي تبنى طرحا فكريا نقديا اجتماعيا أساسه التركيز على مختلف الأدوار الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي يؤديها الأدب ضمن مختلف الحضارات[1] معتبرا أن المجتمع لا يتبنى بل انه ينتج وينمي أدباء يستخلصون إنتاجهم الفني منه (هنانبين قضية صناعة الأحداث النقدية) وفي السياق الفلسفي النقدي الاجتماعي، لا يمكن أن نقفز على الجهود الفكرية النقدية الاجتماعية لـ: "مدام دي ستايل" التي بحثت في العلاقة الأنطولوجية لعلاقة الأدب بمختلف المؤسسات الاجتماعية مثل: القوانين، الدين، الأخلاق، وغيرها، وبمنظور آخر كيف تصنع هذه المؤسسات مختلف الأحداث ضمن مجالات الفكر والأدب والنقد، لذلك فقد انتهت الكثير من الحلقات الاجتماعية والسيرية ذات الطبيعة الاجتماعية إلى أن هناك علاقة سوسيوأدبية تؤطرها مرجعيات بنائية ذات طبيعة اجتماعية هي:

أ/1- الإطار التكويني للفكر السوسيوأدبي:

من المرآوية إلى الانعكاسية:

لقد وصل الفكر النقدي الأدبي الاجتماعي من خلال مختلف علاقاته مع الفلسفات السوسيومادية و السوسيوثقافية إلى الإطار المرجعي الانعكاسي والقائم على تفسير الأدب من منظور الجدلية الفكرية والمادية، ومن ثم اعتبار الإبداع الأدبي تكوين إيديولوجي بامتياز، وعليه فهو يتجلى من خلال الفكروي الذي يمثل أساس الوجود الاجتماعي، لذلك السبب كان الاهتمام بإطار المضمون السوسيو إيديولوجي، الذي له علاقة مباشرة في تكوين الإطار الفكري للأدب ومن هذا المنطلق تحدث -

[1] سيد بحراوي.علم اجتماع الأدب.الشركة المصرية العالمية.ط1.القاهرة.1994.ص:17

المنارة للاستشارات

جورج بليخيانوف- عن "المعادل الموضوعي للأدب"[1]، ذلك انه يتعين على الناقد ترجمة فكرة ذلك الإبداع الأدبي من منظور اللغة الفنية الأدبية إلى اللغة العلمية الاجتماعية، وهذا من أجل تأطير ما يمكن تسميته بـ: المعادل السوسيولوجي في الأدب الذي يؤطر هو الآخر فعل المعارضة للإبداعات الفكرية والأدبية بمختلف أنساقها الاجتماعية أو حتى لمعرفة ما تحتويه من حقائق تجعل من الإبداع يكون في إطار عضوي، أي يؤطر إطارا جماليا من خلال مختلف الأشكال الفكرية ومن ثم يتأطر المفهوم المرآوي للأدب في مرحلته الأولية حيث يقوم بعكس بانورامي لكل الوقائع الاجتماعية والتاريخية والسياسية والاقتصادية وغيرها ، ومن ثم يمكن اعتبار الأدب شكل من أشكال النشاطات الإنسانية الأخرى ،و الذي يمكن اعتباره ضمن تطور قوانين الوجود الفكري و الاجتماعي و الثقافي،و من ثمّ فهو يتأسس فكريا و فنيا على ثنائيات هي:الأدب/الحياة، الأدب/الواقع، الأدب/المجتمع و غيرها التي أخذت بها" نظرية الانعكاس" ضمن مختلف مسارات النقدية الأدبية الاجتماعية، و بالتالي لا يمكن اعتباره في إطار النظرية الجدلية بسيطا بل أخذ مفهوما فعالا ضمن مجال النقد الأدبي السوسيولوجي من منظور البحث عن المسارات الواقعية الخارجية التي لها علاقة بالإبداع الأدبي بمعنى آخر أنّ المفهوم الإجرائي للانعكاس الواقعي ينهض فعله آنيا، بحيث أن المبدع يبقى في إطار تصوير ما يحدث في زمنه فقط، حتى يكون أكثر فعالية من أجل احتواء فعلي لكل الوقائع السوسيوتاريخية والسوسيوثقافية، فعندما جعل النقاد ضمن نظرية الانعكاس أن ينطلقوا من إطارين أساسيين هما: المرآة والانعكاس الفعال .

أما الأول فلا ينظر للإبداع الأدبي على أنه قائم على الهيمنة التاريخية الصرفة، بل إن العناصر السوسيوتاريخية تنعكس فيها بشكل أو بآخر ووفق صور انزياحية لمختلف الأحداث الاجتماعية والتاريخية والثقافية، ومن ثم فإن هذا الانزياح هو الذي تأخذ به التكوينية الإجرائية لفعل الانعكاس، أما هذا الأخير والذي لا يأخذ

1ينظر: محمد خرماش.إشكالية المنهج في النقد المغربي المعاصر.ط1.مطبعة انفو.2001.المغرب.ص:24

المنارة للاستشارات

بإطار التشخيص الدقيق بل إنه يقع في عتبة الإطار الواقعي ضمن عمليات التصوير الفني والأدبي ، وعليه تكون للمبدع إمكانية التفسير على رؤيته للعالم، وعلى خلفية هذا الإطار النقدي الأدبي الاجتماعي وتحديدا على أرضية الانعكاس، تصبح مجمل الرؤى المتناقضة ضمن النصوص الروائية لا تعبر عن فعل التناقض ضمن ايديولوجية المبدع فحسب، بل أنها تعبر عن مختلف الظروف المتناقضة التي يواجهها المجتمع ككل إبان فترة تاريخية محددة فمثلا يمكن اعتبار أدب - تولستوي- "مرآة لحقيقة تاريخية ممتدة من 1861إلى 1905 فتناقضات "تولتسوي" منسجمة مع تناقضات عصره، فهو أرستقراطي يملك اديولوجية الفلاحين ولا يدعوا للتغيير عن طريق العنف"[1].ومن هنا تتحقق الجمالية الفنية والأدبية للأعمال الفكرية والأدبية .

وبناء عليه تبدو تكوينية الأحكام النقدية وفق هذه الرؤية الفكرية النقدية الثورية الاجتماعية أنها تركز بكثرة على القيمة الفكرية الإيديولوجية المهيمنة مع تجاوز مطلق للعناصر الشكلية البنائية، وهذا الذي تميز به الفكر النقدي الأدبي الاجتماعي في بداياته الأولى في تشكيل خطاب نقدي اجتماعي، ذلك أنه ركز على الأدوار الوظيفية التي تؤديها الأعمال الفكرية والأدبية، وهذا باعتبارها وثائق تاريخية أو سياسية اديولوجية يمكن إدراجها ضمن التكوينية الفنية للأعمال الأدبية والتي أنتجت ضمن فترة تاريخية محددة، لذلك يمكن التأكيد على أن الذي اعتمده - فلادمير لينين- وغيره هو نقد سياسي إيديولوجي بامتياز، يركز على: "البحث في العناصر الفكرية الخارجة عن النص ومن ثم فهو يأخذ بالقيم الاجتماعية وكذا الإيديولوجية السائدة في المجتمع ومقابلتها بالعناصر الإيديولوجية الأخرى وذلك بالربط بين المقومات التاريخية لصيرورة المجتمع ونظام أفكار طبقاته المختلفة"[2]وبعبارة أخرى أنها محاولة نقدية من "لينين" لتثبيت المواقف الشخصية للمبدع ضمن نسق الصراع الايديلوجي هذا ما جعل في جانب آخر -عمار بلحسن- يعقب على رؤية لينين النقدية

[1] عبد الرشيد الصادق محمودي.لنين ناقدا لتولستوي.م.فصول.م.5.ع.3.القاهرة.ص:141

[2] سليم بركان.النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي.منشورات .ج.الجزائر .2004.ص:19

المنارة للاستشارات

التي مارسها على أدب- تولتسوي- في أن : "منطقية الربط بين الإنتاج الأدبي والروائي للمجتمع والإيديولوجية تضع عنصرا أساسيا هو علاقة الأدب بما هو تعبير جمالي إيديولوجي بالتناقضات والصراعات الاجتماعية والوطنية التي تحدث في المجتمعات ومدى قدرة الأدب والرواية على عكس هذه التناقضات"[1] ومن ثم يمكن التأكيد على أن - لنين- قد أطر تفسيرا لأدب -تولتسوي- من منظور إيديولوجي صرف مع محاولته الاحتكام بالموضوعية العلمية التي تموقع المبدع موقع يمثل الإيديولوجية المضادة، لذلك جاءت كتابات -تولتسوي- الإبداعية، تنحو إلى الإطار الفكري الصرف ذي الطبيعة الإيديولوجية السياسية بحيث أنها تعبر بطريقة أم بأخرى عن مواقف شخصية للمبدع، وبذلك يكون التركيز على سيرة شخصية المبدع ثم إلى انتمائه الطبقي، وعليه يمكن القول أن هذا الفكر النقدي الاجتماعي من خلال إطاره الإجرائي يبدو أنه ساذج في تفسيره للأدب، حيث يبدو في أحايين كثيرة ضيق الأفق، لأنه منزوي في حدود الحكم الإيديولوجي الصرف الذي لا يحاول أن يؤطر فهما أو تأويلا لمختلف القيم الفكرية والشكلية للأدب بل إنه يركز على تمثل إطار نقدي بسيط هو البحث عن المضامين السوسيو إيديولوجية، وبالمقابل فإن هذا لا يعني أنه لم يقدم إطارا نقديا اجتماعيا لتفسير الأدب بل أن هذا التصور لنظرية الانعكاس هو ما فتح الباب أمام مجال التفكير النقدي السوسيولوجي لأن يؤطر استراتيجيات ونظريات نقدية منها على الحصر هي النظرية النقدية البنيوية الجدلية الاجتماعية في محاولة فهمها وتفسيرها للأدب .

أ/ 2: الإطار التكويني للفكر السوسيوبنيوي:

من النقد الجدلي إلى النقد السوسيوبنيوي

لقد اكتشف النقاد في مجال الدراسات النقدية السوسيولوجية عدم كفاية الانعكاس على تفسير الأدب، ذلك أنه ينظر إلى الإبداع الأدبي ضمن علاقته المباشرة مع الواقع الاجتماعي باعتباره نتاجا ماديا مثله مثل باقي النتاجات الأخرى في المجتمع، لكن وبالمقابل فإن الإبداع الأدبي هو أكثر من ذلك، بحيث أن جوهره

[1] عمار بلحسن.ما قبل بعد الكتابة حول الإيديولوجية.م.فصول.المجلد.5.ع.4.ص:170

المنارة للاستشارات

هو الجمال والفن ومن ثم فهو قائم: على الخيال وعلى العبقرية التي تنهض على مختلف البنيات الذهنية التي تشكل في النهاية وعيا فرديا جماعيا[1]، لذلك فقد تجاوزت النظريات السوسيوبنيوية الجديدة البحث في المؤثرات الفكرية أو تلقف صورة المجتمع في ثنايا العمل الأدبي أو حتى عناصر مجتمعية يملأ بها ذلك الفراغ من منظور الانعكاس من الإطار الأدبي التخييلي وكذا الإطار الاجتماعي الواقعي، وبناء عليه فقد أكد رواد السوسيوأدبية/ النقد السوسيوأدبي على ضرورة الربط بين الإطار السوسيوإيديولوجي والإطار الجمالي باعتبارهما نسقان دلاليان متلازمان ومتكاملان في ثنايا النص الأدبي، هذا ما أفضى إلى تأطير مفهوم فكري نقدي سوسيولوجي مرتبط بالمسار المادي الجدلي الماركسي في مقابل الإطار الفكري المثالي الذي ينظر إلى الأدب على انه مجرد نزوع فردي، لا يعتد بمختلف السياقات الاجتماعية الطبقية التي كانت سببا في إنتاجه وعليه فقد نهضت رؤية فكرية نقدية سوسيولوجية نادت بضرورة الكشف عن مختلف أنساق الوعي الاجتماعية والطبقية، ذلك إن: "كل الإيديولوجيا بما فيها الفن وما يسمى بالآداب الجميلة إنما تعبر عن الميول والأحوال النفسية لمجتمع بعينه، وإذا كان هذا المجتمع منقسم إلى طبقات أو إلى طبقة بعينها، واضح أن الناقد الأدبي الذي يحاول تحليل أثر ما ملزم قبل كل شيء أن يدرك العنصر المعبر عنه في هذا الأثر من عناصر الوعي الاجتماعي أو الوعي الطبقي"[2] هذا يعني أن التركيز على احتواء المضمون الاجتماعي للأعمال الأدبية، هو تصور غير كافي من أجل فهم قيمة الإبداع الفنية والفكرية على السواء، لذلك فإن التركيز: على " هذه الجوانب هو الذي جعله ـ بليخيانوف– . يضعه في أولويات الدراسة النقدية ويبقى التركيز على الجوانب الجمالية في مرحلة لاحقة، فالجمالي يبقى حسبه تتمة

[1] أحمد سالم ولد أياه.البنيوية التكوينيةو النقد الأدبي. الشركة المصرية العالمية.ط1.القاهرة 2005ط1.ص:85

[2] جورج بليخانوف.الفن والتصورالمادي للتاريخ.تر:جورج طرابشي.دار الطليعة.ط1.ص:59.

المنارة للاستشارات

ضرورية للبحث النقدي الإيديولوجي"[1]ومن ثم فإنّ النقد الأدبي الاجتماعي لا يمكن أن يتأسس على المرجعيات السوسيوإديولوجية فقط وبالمقابل فإن إشاراته للعناصر الفنية باعتبار أنها عناصر تكميلية للعملية الابداعية،ما يعني بداءة عدم اكتراثه للعناصر الشكلية أو لجوانب الصياغة الفنية الأدبية لا من بعيد ولا من قريب ومن ثم تركيزه على تأطير الأبعاد الاجتماعية لها، التي تعمل هي الأخرى على صناعة أطر نقدية ذات طبيعة إيديولوجية صرفة وهو ما بدا قائما من خلال التركيز على البحث عن مختلف القيم الإيديولوجية أكثر من أي قيم أخرى، ليبقى الأدب وفق هذا الطرح يبني مواقف شخصية ويبث بيانات إيديولوجية تكون في كثير من الأحيان منبثقة من لدن المبدع.

ولقد اهتدى الفكر النقدي السوسيولوجي الجديد في مقابل التصورات النقدية الاجتماعية السابقة إلى صناعة أطر فكرية نقدية سوسيولوجية جديدة قائمة على أساس فكرة الوساطة، التي تسهل عمليات الفهم والتفسير لمختلف الأبنية الفكرية والأدبية للإبداع الفكري والأدبي، حيث أنه يتم من خلال خلق تفاعل جدلي بين نسقين: فكري وأدبي حيث ينتجان ضمن بنية أدبية جديدة تنصهر فيها القيم الفكرية مع القيم الاجتماعية ومن ثم تتجلى الخصوصية السوسيوبنيوية للخطاب الأدبي الذي يبقى في إمكانه احتواء كل الخطابات الفكرية ضمن عالمه التخييلي، ولذلك فإن محاولة فهمها وتفسيرها لا يمكن أن يحصل إلا من خلال فهم أطر التمفصلات للغة الخطاب في العمل الأدبي.

وبناء عليه فقد تأسست النظرية الجدلية النقدية الاجتماعية على يد "جورج لوكاتش" الذي رفض بما يسمى بالاجتماعية الساذجة، أي تعاطي الأدب من منظور إيديولوجي صرف، حيث ينظر إلى القيمة الثورية للأدب من خلال ما يحتويه من أفكار تقدمية ، أما تبنيه الجدلية النقدية السوسيولوجية الجديدة فهو يتمثل في مجموعة من المفاهيم البنيوية لعل أهمها: رؤية العالم، البنية الدالة، التناظر، وغيرها،لذلك ولما

[1].ص جورج بليخانوف.الفن والتصورالمادي للتاريخ.تر:جورج طرابشي.دار الطليعة.ط1.ص: 53

المنارة للاستشارات

كان الإبداع الأدبي يشكل بنية دينامية مثلها مثل البنى الفكرية التي تبناها المبدعون من أجل خلق نوع من التوازن بين ما هو فكري و ما هو فني، ومن ثم فقد غدا النتاج الأدبي بنية دالة لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال تحديد أنظمتها العلائقية فيما بينها لتؤول الإعمال الأدبية إلى بنية تعبيرية منتجة ضمن مسار الحركية السوسيوثقافية والسوسيومادية، لذلك فإن تفسيرها لا يحصل إلا بربطها بالقيم التي تبناها المبدع ضمن مختلف بنى الوعي التي تفضي في النهاية إلى تبني "رؤية للعالم" لدى الطبقة التي ينتمي إليها المبدع.

ولعل ما حققته هذه النظرية الجدلية من تمثل لخطابات نقدية اجتماعية من حيث تأطير فكري نقدي يفسر علاقة الأدب بالمجتمع من منظور فلسفي واقعي جمالي فعلى الرغم من ذلك فإنها كثفت من التركيز على البعد الاجتماعي للخطاب الأدبي وتجاهلت أدبية الأدب التي يمكن اعتبارها الجوهر الأساسي للإبداع وفي جانب آخر أن هدفها هو الوصول السريع إلى احتواء المضامين الاجتماعية التي يتبناها الأدب ،لذلك و لهذه الاعتبارات فقد تبنت النظرية الجدلية فكرا نقديا بنيويا تكوينيا قائما على التعامل مع الإبداع الأدبي من منظور انّه يمثل بنية من المدلولات المتحولة و ليس من الدوال اللغوية الثابتة و هو ما أتاح و حفزّ على ظهور الدراسات النقدية البنيوية التكوينية التي تنهض على تفسير و فهم الأعمال الأدبية.

لقد ظهرت بوادر الفكر النقدي السوسيولوجي ضمن مسارات الحركة النقدية الأدبية الجديدة ممثله في النقد السوسيوبنيوي، القائم على مرجعيات فلسفية ماركسية جديدة وأطر إجرائية نقدية منهجية، ولقد اعتبر - لوسيان غولدمان-رائد/ مرجعية التحول الفكري النقدي السوسيولوجي بامتياز من خلال تبنيه لمنهجية نقدية بنيوية تكوينية جديدة، ارتكزت على الإرث الفكري والفلسفي النقدي "اللوكاتشي" حيث استوعبه "غولدمان" من منظور إطاره الإجرائي والمتمثل في المقولات التالية: النظرة الشمولية، الشكل، الكلية، الرؤية الكونية، وغيرها، مع احتفاظه بالبعد الاجتماعي لها، ومن ثم فقد ظهرت المنهجية البنيوية التكوينية إلى الوجود، ومتميزة بشكل بارز على مختلف المناهج النقدية الأخرى ذلك أن "غولدمان" قد ركز على فهم وتفسير البنى الفكرية والفنية للأعمال الأدبية من أجل الكشف عن درجة تمثل النصوص الإبداعية

المنارة للاستشارات

لفكر الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المبدع، ومن هنا يمكن القول بداءة أن "غولدمان "بهذا الطرح الفكري والنقدي السوسيولوجي قد تجاوز تلك الرؤى النقدية الضيقة وكذا للآلية التي وقع فيها رواد النقد الاجتماعي التقليدي للأدب من منظور التركيز على تفسير البنية الفكرية التي تحيل بطريقة أم بأخرى إلى مفهوم الرؤية للعالم و التي تتوسط بنائيا بين الأساس الاجتماعي الطبقي الذي ينطلق منه المبدع وكذا للأنساق الفنية والفكرية التي تحكمها هذه الرؤية وتولدها "[1]ومن ثم يتأسس التعارض في الفكر النقدي الأدبي الحديث، بين الخطاب البنيوي التكويني، وخطاب سوسيولوجيا المضامين، التي يتجلى من خلالها العمل الأدبي كانعكاس مرآوي (ليس فعال) وآلي لعناصر الواقع ولوعي الجماعة، وبناء عليه يبدو أن البنيوية التكوينية تهتم بالطابع الاجتماعي للإبداع وكذا الشكلي والبنائي له، لذا يتعين علينا النظر إلى الأعمال الأدبية ككتلة واحدة: "تتضمن بنية ذهنية لإحدى التصورات الموجودة في الواقع فقط، والتي تتبناها فئة دون أخرى وتبقى حرية الكاتب هي الأساس في عملية التشكيل الجمالي"[2] وبالتالي فالمنهجية البنيوية التكوينية تتحدد في البحث عن البنية المتماسكة دلاليا والتي تندرج ضمن سياق إيديولوجي وفني داخل العمل الأدبي وتنهض مهمة الناقد في محاولة الكشف عن البنية الدالة التي تفضي إلى رؤية للعالم، أي يقوم بعملية البحث عن كل عناصر العمل الأدبي الفكرية والفنية التي تشكل في النهاية محيط المبدع الإيديولوجي والأدبي، وعليه حتى في تقسيم مسارات الفكر النقدي السوسيولوجي على إطار إجرائي فلقد احتكم "غولدمان" إلى مجموعة من المقولات الإجرائية من أجل أن يقيم فهما وتفسيرا للأعمال الأدبية لعل من أهمها:البنية الدالة، الرؤية للعالم، الفهم والتفسير، وغيرها لذلك فإن النقلة العلمية التي حققها الإطار الفكري النقدي الاجتماعي بالنسبة لمنهجه هي تجاوز للإطار المضموني الفكري الاجتماعي التقليدي ، حيث أن الأعمال الفكرية أم الأدبية أم الثقافية يمكن دراستها بوصفها: "بنيات مماثلة ومناظرة للبنيات الاجتماعية و لكن في

[1] ينظر .جابر عصفور .نظريات معاصرة.مكتبة الأسرة.ط1.القاهرة.2007.ص:108.

[2] lucien goldman..pour une sociologie du roman.ed.gallimard.p.345

المنارة للاستشارات

عالم يتمتع باستقلاله وبقوانينه الخاصة"[1]وبعبارة أخرى أن بنيات العوالم الأدبية مناظرة لمختلف البنيات الذهنية لدى زمرة اجتماعية، بحيث أن هذه الأخيرة تمثل إطار تمتص فيه أوعاء الأفراد المنتمين لها، ثم تأخذ هذه الأوعاء في النمو والتطلع حتى تحقق درجة من التجانس والتكافؤ فتصل إلى تحقيق أقصى درجات الوعي لتصبح ما اصطلح عليه غولدمان" رؤية العالم" التي تمثل بالنسبة للمبدع وسيطا يعبر من خلاله عن مختلف تطلعات وأحاسيس الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها وبناء على دلك فإن مفهوم الرؤية للعالم يتمثل في ذلك النسق الفكري الذي يكون سابقا على عملية تحقق الإبداع الأدبي، ومن ثم فهو يتلخص وفق منظور" غولدمان" من أنه يمثل مجموعة من التطلعات والعواطف والأفكار التي يلتف حولها أفراد الجماعة الاجتماعية، فتجعل منهم معارضين للمجموعات الأخرى الأخرى، من أجل تحقيق مجموعة التطلعات والأفكار المشار إليها كي تبث فيهم وعيا طبقيا متفاوت الوضوح والتجانس، حيث يصل إلى ذروة وضوحه وتجانسه إما عند الفلاسفة أم العلماء أم الأدباء، ولعل التكوينية الفكرية النقدية -للرؤية للعالم- تنهض على فعل الوعي الممكن فالأول يمثل الإحساس الحقيقي والواقعي لدى الفرد في حين أن الثاني يمثل أقصى درجات الوعي الواقع، أي هو تصور لما ينبغي أن يكون عليه الفرد فهو بذلك يمثل التطلع لإمكانية التغيير للواقع وحتى تعديله لكن وفق ما تراه الجماعة في تحقيق التوازن المنشود، ومن ثم يظهر بفعل هذا البناء المفهومي مفهوم الذات المبدعة، أو الذات الجماعية التي تجاوزت فرديتها، ومن ثم فإن عمليات التشكيل الفكري والفني لمختلف الإبداعات الإنسانية تعود للمبدع الحقيقي وهو: "الجماعة الاجتماعية وليس الفرد الذي بفضل ولادته أو وضعه الاجتماعي يؤلف جزءا من الجماعة "[2]معنى أن المبدع العبقري هو الذي يملك القدرة على خلق إطار جدلي جمالي بين البنى الذهنية والبنى الفنية في ثنايا العمل الإبداعي كما أن فهمها وتفسيرها لا يتحقق إلا بتحليل

---

[1] محمد خرماش.إشكالية المنهج في النقد المغربي المعاصر.ط1.مطبعة انفو.2001.المغرب.ص:19

[2] عبد الله أبو هيف.النقد العربي الجديد.مركز الإنماء العربي.بيروت.ص:175

المنارة للاستشارات

علائقها الداخلية والخارجية القائمة على نسق الإبداع الفكري والفني على السواء، لذلك تبقى هذه الذات تمثل لسان الجماعة التي ينتمي إليها المبدع.

إن المنهجية البنيوية التكوينية تقوم على مستويين يشتغلان وفق نسق إجرائي واحد وهما: مستوى الفهم والذي ينهض على الدراسة المحايثة للبنيات النصية في العمل الأدبي، كما أنها تؤطر نموذجا بنائيا دالا يتألف من مجموعة من العلاقات القائمة بين هذه العناصر اللغوية، لذلك فإن الباحث مدعو لان ينطلق من النص ثم يعود إليه أي وفق حركية مكوكية، أما مستوى التفسير فينهض هو الآخر على ربط مختلف البنيات النصية بأطرها السياقية الخارجية، لتنهض بعد ذلك بنية دالة تفضي هي الأخرى إلى تشكيل رؤية للعالم، بمعنى أن هذا المستوى ينهض إلى إدماج بنية النص اللغوية ضمن بنية فكرية ليصبح ما كان تفسيرا للبنية الأولى فهما للبنية الشاملة وهكذا لأن تحقق الدلالة التي يحتفي بها العمل الأدبي، وعلى هذا الأساس فلقد نبه -غولدمان- إلى أنه وأثناء مباشرة التحليل وفق هذين المستويين، أنه لا يجب إعطاء أهمية كبيرة للنوايا الإيديولوجية لأن ذلك قد يجعل من الدراسة وكأنها تنحو إلى احتواء المضمون لذلك فإن هدف البحث هو الكشف عن البنية الدالة القابعة في ثنايا العمل الأدبي، حيث أنها تتوسط الإطار الفكري الذي يؤول إلى وعي ممكن ضمن إطار الأنساق البنائية للإبداع الأدبي، لذلك فإن الكشف عنها يقتضي إطار معرفيا ونقديا معمقا من أجل احتواء مختلف الأنساق الفكرية الفكرية والأدبية والثقافية واللغوية التي تتمثلها الجماعة الاجتماعية ومن ثم فإن الكشف عن النظام العلائقي الدلالي لها يستدعي: " البحث عن التصور والمخطط الأساسي للبنية الدالة يتطلب سيرا جديا وكاملا و مفعلا للأفعال والوقائع الفردية التي تتم بعد صياغتها كقيم مجردة مطلقة مفهوميا ونظريا"[1]بمعنى أن تكوينية البنية الدالة قائمة على فعل الالتحام بين الإطار الفكري والإطار الفني المتمثل في مختلف الأنساق المعرفية والثقافية للزمرة الاجتماعية لذلك يبقى فعل التقابل بين البنيتين هو الذي يفضي إلى تشكيل البنية الدالة في النص الأدبي .

[1] lucien goldman.le dieu cache.ed.gallimard.paris.p:111

المنارة للاستشارات

وعلى خلفية الأطر الفكرية النقدية السوسيولوجية الجديدة، توصل "غولدمان" إلى تبني مفهوم فلسفي ونقدي لمساراته النقدية البنيوية التكوينية، من ذلك مقولة رؤية العالم التي تمثل شكل من أشكال الوعي، القصوى لدى طبقة اجتماعية معينة، لذلك فهو يشكل:"جوهرالظاهرةالاجتماعيةالتي يدعوها علماء الاجتماع الوعي الجماعي"[1]وبالمقابل فقد أخذ بعدا فلسفيا مع كل من: دلتاي، ولوكاتشن ذلك أن هذا الأخير خصه بقدرة: "إدراك المبدع لمشاكل حياتيه ومشاكل عصره بغريزة فنية "[2] لذلك فإن تشكلها في الأعمال الأدبية ينطلق من انصهار بعدين أساسيين في مسار فكري متميز هما: الاجتماعي منطلقه من الواقع المعيش، والثاني فردي منطلقه خيال المبدع بالإضافة إلى مختلف تطلعات وأحاسيس الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي توثر في الفرد الكاتب المبدع بطريقة أم بأخرى"[3] وبناء عليه يمكن التأكيد على أن الإطار الفكري النقدي البنيوي التكويني قد تجاوز بحق الأطر الفكرية النقدية التقليدية، ومن ثم فقد تبلورت هذه الرؤية الفكرية النقدية السوسيولوجية الجديدة التي ساهمت في بناء مسارات نقدية جديدة واكبت التحول النقدي الذي تشهده الحركة النقدية الأدبية المعاصرة من خلال إعادة قراءتها لمختلف أصول الفلسفة الماركسية المادية الجدلية التي أفرزت فكرا نقديا سوسيولوجيا جديدا استطاع أن يحتوي الأدب في كل مساراته الفكرية والأدبية.

ومما سبق يمكن أن نؤكد على الحضور المتميز للإطار الفكري النقدي السوسيولوجي ضمن مختلف مجالات الدراسات النقدية الأدبية حيث أفضى إلى طرح الكثير من النظريات والاستراتيجيات والمناهج النقدية الأدبية السوسيولوجية، لذلك فهي ضمن هذا الإطار تحتاج إلى إعادة فهمها وتفسيرها ومن ثم تأويلها من أجل تبني رؤية فكرية نقدية صلبة مثلها مثل التي قامت بداءة على فكرة المحاكاة التي أفضت إلى الانعكاس لمختلف الفلسفات والعقائد والإيديولوجيات التي اعتبرت أن

---

[1] ibid.p:25

[2] فاطمة أزرويل.مفاهيم نقد الرواية بالمغرب.دار الفنك.المغرب.1989.ص:173.

[3] ينظر:جمال شحيد.البنيوية التركيبية.دار ابن رشد.ط1.لبنان.ص:38.

المنارة للاستشارات

الإبداع الأدبي والنقدي هو تمثل لحقائق سوسيوتاريخية وسوسيوثقافية، ومن ثم فإن رهان الفكر النقدي السوسيولوجي الجديد متمثلا في محاولة استخلاص لأطر سوسيوبنيوية تفضي للكشف عن الأنساق الفكرية والأدبية للإبداع الأدبي وهو ما يسعى الفكر النقدي المعاصر التأكيد عليه بطريقة أم بأخرى.

المنارة للاستشارات